تفكيك التلازم بين الفكر والدعوة

ـ 1 ـ

من المؤثرات النفسية والفكرية في توجهات شباب المسلمين الذين يرغبون في التعرف علىٰ دينهم الإسلامي، أنهم لا يجدون طريقاً للتعرف علىٰ دينهم إلَّا من خلال كتب الفقه والعقائد والفكر الإسلامي، أي ـ الدين ـ وهو اجتهاد إسلامي جاهز في كتاب فقهي أو عقدي أو سياسي لمؤلف قديم أو مفكر إسلامي معاصر، وعندما يتوجه شباب المسلمين إلىٰ هذه الكتب أو المذاهب الموروثة أو المفكرين المعاصرين، فإنهم يتعرفون عليها ويتأثرون بمواقفها الفكرية، سواء كانت من خلال الأسرة التي يولدون فيها، أو الحي الذي يعيشون فيه، أو المسجد الذي يصلون فيه، أو المدرسة أو الكلية أو الجامعة التي يتعلمون فيها، وفي كل الأحوال فإنهم يتعاملون مباشرة مع غيرهم من المسلمين الذين يكبرونهم سناً وعلماً، ولهم توجهاتهم الفقهية والعقدية السابقة، وربما لهم توجهاتهم الفكرية والسياسية والحزبية الخاصة، فيؤثرون عليهم في معارفهم وعلومهم وفي مواقفهم إما سلباً أو إيجاباً، أي في تقرير المذهبية التي ينتسبون إليها، أو الحزبية التي يؤيدونها أو ينتظمون فيها، أو المذهبية التي يختلفون معها ويعارضونها، هذه النظرة التراثية تؤثر فيهم في مجالات كثيرة، منها:

1 ـ تؤثر علىٰ نوع عقولهم، أي البنية الفكرية التي يتكون منها عقلهم.

2 ـ تؤثر علىٰ أنماط التفكير عندهم، إن كان تقليدياً أو تجديدياً، أو صوفياً أو سياسياً أو غيره.

3 ـ تؤثر علىٰ أنماط الحوار الفكري الذي يفرض عليهم داخل جماعتهم أو مع غيرها من الجماعات الفكرية.

obeikandl.com

4 ـ تؤثر علىٰ سلوكهم الاجتماعي حين يتفاعلون مع غيرهم من المسلمين أو مع غير المسلمين عالمياً.

5 ـ تؤثر علىٰ مواقفهم من الدولة التي يحملون هويتها في السجلات الرسمية، وربما دون قناعة بهذه الهوية الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية في الغالب(1).

6 ـ تؤثر علىٰ تنميط صراعهم مع الدول المعادية للإسلام والمسلمين، وبالأخص إذا كانت هذه الدول في حالة حرب واحتلال لأرض المسلمين، وهي أشد تنميطاً إذا كانت المحاربة فكرية أيضاً، وكأن العلاقة مع الغرب هي صدامية بالضرورة، أو ليس لها إلَّا وجه واحد في التعامل.

هذه بعض التأثيرات وهناك غيرها تؤثر فيهم وهم أطفال وشباب صغار، ولكن ما نخصه بهذا الفصل التنميط الفكري، في تنشئة الأجيال الجديدة بعقلية الآباء الفكريين أو الأسريين في الربط الوثيق بين الفكر والدعوة، في مرحلة التفاعل التربوي الأساسي والتعليمي الابتدائي، أو التفاعل الاجتماعي الطبيعي، مثل البنوة والأخوة والصحبة والصداقة والجيرة وغيرها، فهذه تؤثر في تكوين معارف وأفكار وعقول النشء المسلم الجديد، فلا يكون له في البداية تأثير معرفي أو عقلي أو علمي علىٰ نفسه وثقافته وعقله، لأن الفكر مما يعد له ولا يعده هو لنفسه، وهذا أمر طبيعي ويحصل في كل الأمم والعصور، لأن الإنسان المسلم وغير المسلم يبدأ متعلماً ولا يولد عالماً، ولكن الخطورة أن يواصل الإنسان كل حياته علىٰ هذا النمط من التربية والتعليم وأنماط الفكر والسلوك التقليدي، فلا يسعىٰ في تعليم نفسه بنفسه، وبالأخص عند سن الشباب.

---

(1) حول مفهوم الهوية انظر مسألة الهوية، العروبة والإسلام.. والغرب، الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1995م.

— 2 —

الشاب المسلم مطالب أن يقف عند مرحلة البلوغ الجسدي والعقلي من عمره، ويفكر بما تعلمه في صغره وكبره، إن كان حقاً أو باطلاً، إن كان صواباً أو خطأً، إن كان عقلانياً أو خرافياً، أي أنه مطالب أن تكون قراءته قراءة علمية حرة، حتىٰ يكون تصديقه بالعلم الحق، ويكون عمله نافعاً وفيه صلاحه، وإلّا أهدر قيمة نفسه الإنسانية والمعرفية والعقلية والعلمية الفردية والجماعية.

ومن أخطر الأفكار التي يتأثر بها شباب المسلمين من الأوساط الفكرية الإسلامية، والتي يتعلمون منها فكرهم الإسلامي، هي أنماط السلوك الفكري والاجتماعي، أي تقليدهم للطريقة التي يصنع فيها القادة والزعماء والمفكرون والأئمة، ومثاله التقليد في صناعة الزعامة الصوفية، فالشباب الذين يولدون في أسر علمية وفيها إمامة مذهبية فقهية أو عقدية أو صوفية أو حزبية، يؤثر الآباء في الأبناء في تهيئة أنفسهم للوراثة في الولاية العلمية، وتنشأ في الأولاد رغبة في تقليد آبائهم في القيادة المذهبية، وبالأخص إذا كان الآباء من أصحاب الطرق الصوفية، وتوارثوا زعامتهم عن الآباء والأجداد.

هذه التراثية في انتقال الزعامة الدينية في داخل الأسرة الواحدة أشد ضرراً علىٰ المسلمين من التراثية الفكرية والاجتماعية والسياسية والحزبية المستبدة، لأنها تربي شباب المسلمين علىٰ أنه لا حق لهم في الاهتمام بمجتمعهم الذين يعيشون فيه، ولا حق لهم في مشاركة أفراد مجتمعهم في تحسين ظروفه وتقدم منجزاته، لأنه ولد إما إماماً أو مأموماً وهو طفل صغير، أو قبل أن يكون طفلاً أو جنيناً، وقد ولد من آل الشيخ أو الإمام أو الأمير، فعندما يخرج إلىٰ الحياة الدنيا يجد نفسه إما عبداً أو سيداً دون إرادة منه، هذا مشاهد في نقل الوراثة العلمية في المذهبية الدينية عموماً والطرق الصوفية خصوصاً، فالابن محسوم أمره أنه سيكون شيخ هذه الطريقة بالوراثة، أو أنه سيكون إمام هذه الدعوة الفقهية أو العقدية، أو رئيس هذا الحزب بعد أبيه، لأن الزعامة الحزبية في أسرته وبيته ونسله، وقد تكون الوراثة في إمامة مسجد معين

فلا تنتقل إمامة المسجد من أسرة إلىٰ أخرىٰ ما وجد فيها مولود ذكر ولو كان طفلاً رضيعاً[1].

إن التراثية في انتقال الولاية العلمية المذهبية أو الصوفية من الآباء إلىٰ الأبناء أوجدت الاستبداد الفكري والاستبداد المذهبي والاستبداد الصوفي، والأشد ضرراً أنها ولَّدت في نفوس الشباب شغف التطلع إلىٰ الإمامة المذهبية والقيادة العلمية والزعامة الحزبية وكأنها هدف عظيم، وكلها تمارس الاستبداد الفكري، وللأسف فإن هذه التراثية في الزعامة الدينية ليست حصراً علىٰ البسطاء من الناس، بل يتورط فيها كثير من طلبة العلم العصري، ومن الأوساط العلمية العصرية من طلبة الجامعات وحملة الشهادات العلمية العليا، من حملة الماجستير والدكتوراه، فتجدها متورطة في هذا المرض التراثي، فتجد مهندساً أو أستاذاً جامعياً يخضع للاستبداد المذهبي والصوفي، فيقبل يد طفل صغير لأنه ابن الشيخ ووارث الطريقة.

ـ 3 ـ

إن المغالاة في تكريم إمام الدعوة أو المذهب أو الطائفة أو رئيس الحزب أو الحركة أو الجمعية أو غيرها، مآله الاستبداد في الولاية العلمية، وهذا أمر في غاية الخطورة، جنىٰ المسلمون مصائبه في التاريخ والحاضر، لأنه يجعل الشيخ مقدساً بالفعل والمعاملة ـ وإن لم يدَّعِ ذلك بالقول ـ وهذا يجعله فوق المسؤولية والمساءلة، بل ويجعل شجرة الهندسة الوراثية عنده وذريته مقدسة مهما كانت ثمارها ضارة، وهذا أوجد حالة مرضية في الولاية العلمية، بحيث صار منصب الإمامة العلمية منصباً ترنو إليه الأبصار، وتتطلع إليه الأنظار، وصارت القيادة الحزبية غاية كل حزبي، وصار طالب الفكر يفكر في طريق للزعامة الفكرية، وأن يتخذ من تعلم الفكر الإسلامي طريقاً للقيادة الفكرية أمام من هم دونه في التعلم، وأصبح مدار تعلم الشاب للفقه الإسلامي أن يجعل من نفسه إماماً في الفقه، وهذا يتطلب أن يدعي أنه صاحب دعوة، أي دعوة الآخرين إلىٰ فكره ومذهبه وحزبه وطريقته، وأن يدعي أنه في حالة تنافر ورفض وكره وعداء للآخرين من المسلمين قبل غيرهم.

---

(1) انظر كتاب: سر انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين، محمد سعيد العرفي، ص 465.

وهكذا ارتبط الفكر بالدعوة وكأنهما صنوان، فلا يكون المفكر مفكراً إلَّا وهو داعية إلىٰ فكره، بل لا يحكم علىٰ نضوجه الفكري إلَّا إذا أصبح صاحب دعوة فكرية متميزة، وقد يبدأ الشاب متعلماً لأحكام مذهب فقهي معين أو عقيدة إسلامية ما، ولكن سرعان ما يتحول بهذا التعليم إلىٰ مناصر قوي لهذا المذهب الفقهي أو العقدي أو الحزبي، وسرعان ما يصبح أو يدعي أنه إمام هذا المذهب الفقهي أو العقدي أو الحزبي ولو بالانشقاق عن شيخه، وقد يدعي أنه هرب من استبداد شيخه، ولكنه يستبد بمن دونه من المتبعين له حتىٰ يمارس دور الشيخ أو رئيس الحزب، ويعامل أتباعه معاملة التلاميذ ويصرح بأن هدفه في هذه التلمذة أنه يريد أن يكوِّن هو لهم عقولهم الجديدة، ليجعل منها عقولاً مذهبية مغلقة أو عقولاً حزبية مستبدة، لأنهم في نظره جهلة أو ضالون، وهم دونه في العلم بهذا المذهب الفقهي أو العقدي، وبالتالي فهم دونه في المرتبة، فهو الشيخ الذي لا يشق له غبار، وفي هذه المرحلة لا يملك إلَّا أن يكون مستبداً في رأيه وفكره حتىٰ يفرض لنفسه الإمامة ويوجب علىٰ غيره التابعية والطاعة، فلا يقبل من تلميذ أن يتحرك أو يتكلم في حضرته ومجلسه إلَّا بإذنه، فضلاً عن أن يسمح لهم أن يشاركوه في الفكر أو يشاوروه في الاجتهاد، فهذه خطوط حمراء لا يجوز تجاوزها، ولا الاقتراب منها.

وعلىٰ صعيد العمل الفكري، يتحول متعلم الفكر إلىٰ مفكر ثم إلىٰ صاحب دعوة، أي يدعو الناس وشباب المسلمين إلىٰ اتباع أفكاره، ويحاسب ويقوِّم الناس بحسب موقفهم منها، حتىٰ كاد "الوسط الديني" أن لا يتفهم وجود مفكر إسلامي من غير أن يكون داعية إلىٰ فكره، بل يحاسبه من غيره إذا لم يكن صاحب دعوة، ويسأل: لماذا لا يكون له دعوة، وكأن من اللازم علىٰ كل مفكر أن يكون صاحب دعوة، وإلَّا فهو ليس بمفكر ولا قيمة لفكره ما لم يدع له، وإذا وافق أن يكون صاحب دعوة فلا بد أن يمارس الاستبداد الفكري، فينفرد برأيه علىٰ أنه الحق والصواب، وأن يجتهد في الرد علىٰ مخالفيه ورد آراء غيره من المفكرين المخالفين له، وكأن المجال الفكري لا يحتمل إلَّا الحق أو الباطل، الهدىٰ أو الضلال، فصار الأصل في صاحب الدعوة أن يتميز بأفكاره عن غيره، وأن يكون له أتباع يستبد بهم، وإلَّا فهو لا يستحق أن يكون شيخاً لهم ولا إماماً عليهم.

ـ 4 ـ

لقد ولَّدت المذهبية المغلقة والحزبية المستبدة حياة فكرية متنافرة لا تعرف الشورىٰ العلمية ولا التسامح بين المسلمين، بل قائمة علىٰ العداء الفكري، ولا تقر بشرعية الاختلاف بين المفكرين المسلمين، لأنها جعلت كل من يظن بنفسه الفكر أنه صاحب دعوة، وأنه مطالب أن يخالف كل فكر إسلامي آخر، ولو بقي الأمر كذلك لهان الأمر، وإن لم يكن سلبياً، ولكن الأخطر من ذلك أن المفكرين الدعاة يسارعون في مهاجمة كل مفكر إسلامي آخر ولو لم يكن صاحب دعوة، وبالأخص إذا لم يكن من المحافظين التراثيين واجتهد في بحث القضايا الإسلامية، فهم ينظرون إليه طالما هو لا ينتمي إليهم، وله ـ المفكر الآخر ـ فكره أو كتبه أو مشروعه الفكري، بأنه مخرب في الدين، أو مدمر للإسلام، أو عدو لله ورسوله، وكان الأحرىٰ بهم أن تكون مواقفهم أكثر اتزاناً مخافة أن يظلموا أحداً من المسلمين أولاً، وأن تكون مواقفهم أكثر عقلانية مخافة أن يكونوا هم المخطئين ثانياً، وأن تكون مواقفهم أكثر تسامحاً مخافة أن تكون الدائرة عليهم ثالثاً.

من المهم التفريق بين المفكر الذي يعرض نفسه مفكراً وكاتباً في الشؤون الإسلامية وقضايا النهضة، وبين من يعرض نفسه داعية إسلامياً، ومن يعرض نفسه عدواً للإسلام والمسلمين بكل صراحة وعلانية، فالأول الذي يعرض نفسه مفكراً في الشؤون الإسلامية، ويقدم كتبه ومشروعه الفكري إلىٰ المسلمين كافة، ويحثهم علىٰ التفكير فيها، فهؤلاء لا يجوز قمعهم من قبل المفكرين الآخرين بغير حق، لأن الإسلام لم ينصب أحداً من المسلمين المفكرين أو العلماء قيماً أو وصياً علىٰ المفكرين والعلماء الآخرين.

فإذا تساوىٰ المفكرون في الانتماء إلىٰ الإسلام، واختلفوا في تفكيرهم واجتهاداتهم، فالحوار بين المفكرين يجب أن يتوجه إلىٰ المحور الذي عليه الاختلاف بين المجتهدين، أي في القضايا التي يختلفون في تشخيصها وفهم واقعها، والتي يختلفون في الحلول والإجراءات التي يسعىٰ كل مفكر إلىٰ الأخذ بها طريقاً للخروج من الأزمات المزمنة والراهنة.

ـ 5 ـ

إن تجريم أي مفكر أو باحث في الشأن الإسلامي لأي مفكر أو باحث آخر في المجال نفسه هو جريمة يحرمها الإسلام، واستبداد فكري لا يقبل بقاؤه بين المسلمين، وقد أثبتت التجارب الإسلامية التاريخية أن الاستبداد الفكري لم يقض علىٰ الخلاف بين المدارس الإسلامية التاريخية ولا بين المدارس المعاصرة، ومن الظلم تكرار أخطاء الماضي: في سعي أحد التيارات الإسلامية ادعاء الحقيقة والصواب لنفسه وإلغاء الآخرين، فيكفي أن تكون هذه التيارات متفقة علىٰ الانتماء للإسلام، وأنها كلها مجتهدة ومجاهدة في تقديم المعرفة والفكر والوعي والمشاريع التي تحسن أحوال المسلمين، فلا يملك أحد من المجتهدين أو المفكرين أو الباحثين أن يدعي أن اجتهاده هو الحق دائماً وفي كل مسألة وحكم، وإنما هو مصيب في مسائل ومخطئ في مسائل أخرىٰ حتماً، فليس أمام علماء المسلمين من المحافظين والإصلاحيين إلَّا الحوار الفكري والشورىٰ العلمية حتىٰ يأذن الله بالفرج القريب.

وإذا تقدم باحث مسلم في عرض أفكاره أو كتبه، فلا يجوز أن يُحمَّل مسؤولية الدعوة لها، أو أن يفرض عليه أنه داعية إلىٰ هذا الفكر، وإنما من الممكن الفصل بين الفكر والدعوة، فالتلازم بين الفكر والدعوة إلىٰ فكر معين، أمر يعود إلىٰ المفكر نفسه، فقد يختار أن يكون صاحب فكر أو مشروع فكري، دون أن يجعل من مشروعه الفكري دعوة، يدعو الناس إلىٰ اتباعها أو الأخذ بها، فالتلازم بين التفكير وهو حق لكل مسلم وبين الدعوة وهي غير واجبة علىٰ كل مسلم، هذا التلازم غير حتمي شرعاً ولا عقلاً، وإنما هو مما تأثر به بعض المسلمين من تاريخهم الفكري، ومما انتشر بين شباب المسلمين بتأثير الحركات والأحزاب الإسلامية المعاصرة، مما صنع إشكالية أخرىٰ بين الدعوة والحزبية والدولة، أثرت علىٰ استدامة الاستبداد الفكري بين المسلمين.

إن الذي أنصح به شباب المسلمين: أن يكثروا من القراءة العلمية الحرة، والبحث عن المعرفة الجديدة، ومواصلة التفكير والاجتهاد، دون ربط ذلك بالعمل الدعوي أو الحزبي، وإنما علىٰ أساس أنه عبادة علمية لله تعالىٰ، علىٰ أن لا تعني هذه النصيحة دعوة للتخلي عن

العمل الدعوي أو الحزبي للقائمين بها، فهذا ما لا نتدخل به ولو من باب النصيحة، فهم أصحاب قراءة واجتهاد إسلامي، وإنما الذي نقصده أن تتوجه الجهود الجديدة للشباب المسلم إلىٰ صناعة المسلم المثقف بالفكر الإسلامي الحديث، بمنهجية معرفية حرة، وعقلانية إسلامية جديدة، وتفكير علمي، أي بمدخل علمي جديد قادر علىٰ صناعة المشروع الفكري الخاص به، والذي يستطيع من خلال محاورة المسلمين الآخرين بحرية واحترام، ودون مذهبية ولا استبداد، والتعاون مع المفكرين الآخرين سواء كانوا من أصحاب الفكر أو الدعوة لإنضاج الأفكار الأصلح في معالجة مشاكل الحاضر وتحدياته، وليس معالجة مشاكل الماضي وتعقيداته، ومن أجل أن يكون صنع الرأي العام القادم رأياً إسلامياً اجتماعياً وليس رأياً حزبياً فقط، أي رأياً ساهم الجميع في صناعته وصياغته، لأنه الأقدر من غيره علىٰ مباشرة مشروع النهضة المنشودة.

۞ ۞ ۞

obeikandl.com